

الفصل الخامس

إخناثون

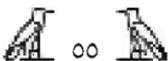
أول الموحدين، أم أول من كفر؟

إخن أتون: أو خادم أتون، من هو؟ ولماذا وهب حياته لخدمة أتون؟ ثم من هو أتون؟، وهل يختلف عن رع؟ وماذا حل بآمون؟ ولماذا انتهت هذه الديانة بموته؟ وإن كان قد مات أو قتل. فكيف مات؟، أو كيف قتل؟ وما هي أوجه الشبه بينه وبين نبي الله إبراهيم؟ ولماذا كان له شكل غريب، عن باقي أولئك الذين حكموا مصر في تلك الفترة؟

ولكن قبل كل هذه التساؤلات، علينا بقراءة ترنيمة أتون العظمى، والتي كتبها إخاناتون لتكريم أتون إله ديانته، التي لم تدم سوى خلال فترة حكم إخاناتون نفسه فقط.

تقول الترنيمة:

- تظهر في أفق السماء أيتها الشمس الحية، الذي يقدر الحياة.
- تشرق في الأفق الشرقي في الصباح، وتملأ كل البلاد بجمالك.
- أنت جميل وعظيم ومشرق الآن فوق جميع البلدان.
- وأشعتهك تملك كل البلاد حتى آخر كل ما خلقت.
- أنت رع عندما تصل إلى حدودهم وتجعلهم يركعون لابنك المحبوب.



- أنت بعيد، ولكن أشعتك تصل إلى الأرض.
- وإنك في وجوههم، ولكن مسارك مجهول.
- عندما تغرب تحت الأفق الغربي، يبقى العالم في ظلام، في حالة كالموت.
- النائمون في بيوتهم يكسون أنفسهم بالغطاء، ولا ترى عين عينا أخرى.
- إذا سرقت أمتعتهم من تحت رؤوسهم، لا يشعرون.
- ويخرج كل وحش من مكمته، والثعابين تعض.
- الظلام كالقبر، وتبقى الأرض ساكنة، إذ أن خالقهم قد غرب خلف أفقه.
- وتشرق في الصباح على الأفق، وتضيء كالشمس أثناء النهار.
- وتخفى الظلام وتنتشر أشعتك.
- ويظل القطران (الشمالي والجنوبي) محتفلين بالنهار.
- ويستيقظ الناس ويقفون على أقدامهم، فقد نصبتهم على أرجلهم.
- أجسامهم نظيفة، ويلبسون الملابس، ويرفعون أذرعتهم تقديسا لظهورك.
- وكل البلاد تمارس عملها.
- كل الأنعام راضية بأعشابها وأشجارها ونباتاتها الخضراء.

- وتتطلق الطيور من أعشاشها، ترفرف أجنحتها تسبح بروحك.
- وتقفز كل الوحوش على أرجلها.
- وكل ما يطير يرفرف، ويحيون عندما تشرق لهم.
- وتسير السفن الحاملة شمالا وجنوبا، وكل طريق يفتح بظهورك.
- وتقفز الأسماك في النهر أمام وجهك، وتملاً أشعتك قلب البحار.
- أنت الذي ينبت البويضات في النساء، وتجعل من "الماء" أناسا.
- وتبقى على حياة الطفل في بطن أمه وتهدئه فلا يسقط له دموع.
- إنك المربية في بطن الأم.
- وتعطى النفس؛ لكى تحيا جميع المخلوقات.
- وعندما يولد (الطفل) من بطن أمه، فلكى يتنفس وقت ولادته، فإنك تفتح له فمه كاملا، وتعطيه احتياجاته.
- وتكلم الكتكوت في بيضته، الذي يتكلم من قشرته، تعطيه الهواء فيها لكى يعيش.
- وتقدر له الوقت، ثم تكسر القشرة ويخرج منها.
- ويخرج من البيضة ينقق في وقته.
- ويجرى على رجليه عندما يخرج منها.

- كم كثرت أعمالك، والخافي منها.
- إنك الإله الواحد، لا مثيل له.
- خلقت الأرض برغبتك منفردا، فيها الناس والأنعام وكل الحيوانات. وبكل ما على الأرض، وما يسير على أرجله وكل ما يطير بجناحيه في السماء.
- البلدان الغربية في سورية، والنوبة، وكذلك أرض مصر، كلٌّ تعطيه مكانه وتؤمن احتياجاته.
- الكل يحصل على غذائه، وتقدر قدر عمره.
- يتكلمون بالسنة مختلفة، وتختلف ملامحهم، وتختلف ألوانهم، فإنك تخلق الشعوب.
- خلقت النيل في عالم الخفاء، وتصعده بحسب رغبتك، وتحفظ حياة الناس، لأنك أنت خالقهم.
- وإنك لهم، ترعاهم؛ أنت أيها الملك على كل البلدان.
- تشرق لهم، فأنت شمس اليوم، عظيمٌ في رفعتك.
- وتبقى كل البلدان الغربية على قيد الحياة.
- وخلقت نيلا في السماء؛ لكي يهبط عليهم، يشكل أموجا على الجبال. مثل البحر لكي يروون حقولهم، ويحصلون على ما يحتاجون.
- كما أن تقديرك فعّال، أنت يا سيد الأبدية.
- نيل السماء؛ تمنحه للشعوب الغربية، ولكل حيوانات الصحراء، التي تجرى على أقدام.
- ولكن النيل الحفيفي، يأتي من عالم الخفاء إلى مصر.

- تُرضع أشعتك جميع الحقول، وعندما تشرق يحيون ويطرعرعون من أجلك.
- وخلقت فصول السنة؛ لكي تتطور جميع مخلوقاتك.
- في الشتاء يبردون، وفي الصيف يحترنون، لكي يشعروا بك.
- وجعلت السماء بعيدة المنال، لتعلو فيها، وترى كل شيء قمت أنت بخلقه.
- إنك فريد عندما تشرق، وفي جميع أشكالك كأتون الحي. الذي يظهر ويضيء، وتبتعد ثم تقترب.
- وتخلق ملايين الأشكال منك أنت.
- مدن وقرى وحقول وطرق ونهر.
- كل الأعين تنظر إليك، عندما تظهر كشمس النهار فوق البلاد.
- عندما تغرب، لا تصبح عينك هنا، تلك خلقتها أنت من أجل خاطرها. لكي لا ترى نفسك كالأوحد الذي خلقتك.
- تبقى في قلبي، ولا أحد آخر يعرفك، إلا ابنك "نفر خبر رع - أوان رع" .. الذي جعلته يعرف جوهرك وقدرتك.
- تخلق العالم بإشارة منك مثلما خلقتك.
- وعندما تشرق يعيشون، وعندما تختفي يموتون.
- إنك أنت عمر الحياة، وتعيش الناس منك.
- وتستمتع الأعين بجمالك حتى تغرب.

- وتترك الأشغال عندما تغرب في الغرب.
- يا مشرق أنت، قوَى كل الأذرع للملك.
- واعط سرعة لكل قدم.
- منذ أن أسست الدنيا، فقد أنشأتها من أجل ابنك.
- الذي نشأ من بدنك، ملك القطرين المصريين "نفر خبرو رع - أوان رع - ابن رع".
- الذي يعيش من ماعت، سيد التيجان، إخناتون، كبير في حياته. والملكة الزوجة العظيمة، التي يحبها، ملك القطرين نفرتيتي. تبقى حية وشابة دائما وإلى الأبد.
- ثم مقارنة هذه الترنيمة بما كتب قبل إخناتون، فالأنشودة التالية كتبت في عصر بناء الأهرام، وقد وجدت في هليوبوليس، أو عين شمس، وهي تدل على أن التوحيد كان قبل إخناتون.
- يا مذكري بالأبدية
- وحجتي في إدراك الأبدية
- يامن سوا نفسه بنفسه.....
- إنك صانعٌ مصورٌ لنفسك بنفسك
- ومُصورٍ دون أن تُصور
- منقطع القرين في صفاته، مخترق الأبدية
- مرشد الملايين إلى السبل
- وعندما تقلع في عرض السماء، يشاهدك كل البشر.....
- أنت خالق الكل وتمنحهم قوتك

- أنت أم نافعة للآلهة والبشر
- وأنت صانع مجرب....
- وراع شجاع، يسوق ماشيته
- وأنت ملجؤها ومانحها قوتها.....
- هو الذي يرى ما خلق
- والسيد الأحد، الذي يأخذ كل الأراضي أسرى كل يوم
- بصفته واحد يشاهد من عليها
- مضيء في السماء وكائن كالشمس
- وهو يخلق الفصول والشهور...
- وكل البلاد في فرح، عند بزوغه كل يوم... لكى تسبح له.

لم ينل حاكم لمصر مثل هذا الجدل الذي دار حول إخاناتون، ولم ينل مثل كل هذه التناقضات في وصفه، فنجد من تخيَّله نبي الله إبراهيم، ومن تخيَّله شادا، ومن تخيَّله شاعرا مجنونا، ومن تخيَّله حاكما طاغيا، ومن تخيَّله مناديا بديانة جديدة، ومن تخيَّله منقلبا على ديانة أمون. وعلينا أن نضع بعض النقاط على الحروف حتى تتضح الصورة.

إخاناتون (خادم آتون) أو أمنحوتب الرابع (من رضى عنه أمون) هو عاشر فراعنة الأسرة الثامنة عشر، حكم مع زوجته الرئيسية "نفرتيتي" لمدة ١٧ سنة، منذ عام ١٣٦٩ ق.م. (توفى ١٣٣٦ قبل الميلاد أو ١٣٣٤ قبل الميلاد).

كان إخناتون الابن الأصغر للملك أمنحوتب الثالث من الملكة تيى، التي كانت الزوجة العظمى المفضلة لدى أمنحوتب الثالث، ولم يكن مقدرًا لإخناتون أن يكون وليا للعهد، حتى وفاة الأخ الأكبر له تحوت مس (إبن تحوت).

امتد عهد الملك أمنحوتب الثالث لنحو ٣٨ عاماً، توفى بعدها تاركا العرش لابنه أمنحوتب الرابع، وربما بعد حكم مشترك دام بين ٢ إلى ١٢ عاماً، حيث يعتقد أنه شارك والده في الحكم، وهو في سن السادسة عشرة، ويعتقد أن فترة حكم إخناتون هي من ١٣٥٣ قبل الميلاد - ١٣٣٦ قبل الميلاد أو ١٣٥١ قبل الميلاد - ١٣٣٤ قبل الميلاد.

أما أم الملك إخناتون فهي الملكة تيى (سنة ١٣٩٨ قبل الميلاد - ١٣٣٨ قبل الميلاد)، وهي الزوجة العظمى المفضلة لدى أمنحوتب الثالث فرعون "بر عا" الأسرة الثامنة عشر الشهير. كانت الملكة تيى سيدة حكيمة، لم تأت من بيت ملكي، وإنما كانت فقط من أسرة من الأعيان والوجهاء. في الماضي، افترض بعض العلماء أن والد تيى، (يايا)، كان من أصل آسيوي بسبب ملامح موميائه، ومن هجاء اسمه بطرق مختلفة، والذي قد يعني ضمناً أن اسمه في الأصل كان غير مصري.

كما أنه من الملاحظ بقوة، أن ملامح الملكة تي لا تنتمي للملامح المصرية، إضافة إلى عدم وجود ما يدل على انحدارها من دم ملكي، مما يؤكد أنها لم تكن مصرية الأصل.

وقد ورث إخاناتون شكل عيون أمه، ولم يرث شكل العيون المصرية، فقد شذت صورته عن صور باقي حكام مصر في تلك الفترة، أي أن انتماء جينات إخاناتون كان فيها الكثير والكثير مما هو ليس بمصري.

وهنا تكمن مشكلة إخاناتون الابن الثاني للملك أمنحوتب الثالث، الذي لم يكن له سوى ولدين فقط، وقد جرت العادة في العصور المصرية القديمة أن الابن الأكبر هو الذي يرث العرش بعد والده، وبالتالي، فإن تعليمه لابد أن يكون تعليماً عسكرياً وسياسياً في المقام الأول، في حين يتعلم باقي الأبناء العلوم الحياتية؛ من علم فلك، وكيمياء وخلافه، ولكن الملك أمنحوتب اضطر لنقل إخاناتون من تعلم العلوم الحياتية إلى تعلم العلوم العسكرية، في سرعة تدل عليها توليه الحكم مع والده لمدة تقارب أو تزيد على السنتين، وهو ما يعني عدم اكتمال تعليمه العلوم الحياتية، وفي نفس الوقت عدم وصوله إلى درجة عالية في العلوم العسكرية والسياسية، وهو ما قد أدى به إلى خلل في الفكر، أو إلى عدم فهم لمعنى العقيدة المصرية بصورتها الحقيقية.

ونظراً لعدم مصرية والدته الملك إخاناتون، فهو لا يعد مصرياً نقياً، ونظراً لما قد أوردناه عن فكرة الوراثة الفكرية، ففكر إخاناتون لم يكن مصرياً خالصاً، حتى يتمكن من فهم مضمون الديانة المصرية، التي هي في الأصل ديانة تدعو إلى التوحيد، وقد يكون أثر أيضاً في فكره، النظر إلى المصريين وآلهتهم

بأنهم هم من حاربوا بلاده التي انحدرت منها أمه، وبالتالي، فقد حان وقت الانتقام من دولة، ممثلاً في الانتقام من الإله الأعظم لها "أمون".

ولا يعد فكر إخناتون فكراً في معاداة أمون فقط، ولكنها معاداة كل ما اعتاد عليه الشعب المصري، فالشعب المصري يرى الشرق هو الحياة والغرب هو رمز الموت، وبنى كل معابده في الشرق في حين بنى جبانته في الغرب، ليأتي إخناتون ويعكس كل ما آمن به الشعب المصري، ويبني مقابره في الشرق، في سابقة لا تعد متوافقه حتى مع فكر إخناتون نفسه، الذي اعتبر أن شروق الشمس هو الحياة.

وأمون الذي هو الإله الواحد الأحد، نظر إليه المصريون باعتباره الإله الخفي، كما توالى الديانات السماوية بعد ذلك، باعتبار أن الإله الأعظم، لا يمكن أن يراه العباد، ولكنه يرى العباد، فقد رفض ذلك إخناتون، وأراد أن يكون الإله مرئياً، فاختار أحد رموز قوة الإله أمون، اختار رع أو أتون ليصبح هو الإله في ديانته الجديدة.

وبالتالي، فإننا نرى اللوحة المادية قد طغت على تفكير إخناتون، كما طغت في مرحلة النضج على تفكير نبي الله إبراهيم، ليصل نبي الله إبراهيم فيما بعد، أي بعد نضج التفكير، لأن قدسية الإله تدعو إلى البعد عن المادية، والسمو إلى اللامادية، نفس الفكر الذي اعتنقه المصري القديم بعبادته لأمون الإله الواحد الخفي،

الذي خلق كل شيء، لكن فكر إخاناتون لم يرتقِ إلى هذا المستوى، ليظل عابدا للمادية؛ ممثلة في قرص الشمس "أتون".

ثم إن هناك جانبا آخر، ويعتبر من القوة بمكان مما يستلزم التنويه إليه، ألا وهو إننا يمكن أن نغيّر زي شعب، ويمكن أن نغير شكل مساكن الشعب، ويمكن أن نغير شكل شوارع المدن، إلا أن تغيير الفكر، بل تغيير العقيدة لا يمكن أن يتم بالسهولة التي حدثت أثناء حكم إخاناتون، الذي غير ديانة دولة بكاملها في خلال فترة حكمة، التي لم تدم أكثر من سبعة عشر عاما، ولكننا نرى أن هذا التغيير لم يكن تغييرا حقيقيا، فبمجرد موت إخاناتون، أو اغتياله، عادت مصر إلى ديانتها الأصلية، عادت إلى عبادة آمون، بل أن وريثه توت عنخ أتون ما أن مات إخاناتون حتى سارع إلى تغيير اسمه إلى توت عنخ آمون.

إذن، فلم يكن إخاناتون ذلك الشاعر الحالم، الذي قال شعرا في زوجته الجميلة نفرتيتي، بل كان ذلك الحاكم المتسلط الذي منع الشعب من عبادة إله واحد، وحوله لعبادة إله واحد آخر، بادعاء التوحيد، سواء أكان الادعاء منه، أو ممن كتب عن تاريخ مصر لاحقا، وبالتالي فقد انتفت عنه صفة أول الموحدين، ولكنه اكتسب صفة جديدة، ألا وهى أول من كفر، أول من كفر بأمون، أول من كفر بإله واحد خفى، أول من كفر بمن خلق كل شيء.

وإذا صحت فكرتنا عن عدم مصرية إخناتون الخالصة، فقد يتضح لنا -الآن- كيف أن مملكة، كانت تمتد من الجندل الرابع جنوبا حتى بلاد الحيثيين شمالا، قد تقلصت في عهده، ففي الواقع لم يكن ما بداخل إخناتون مُعلنًا، أو غير مُعلن أن تلك الأرض هي أراضٍ مصرية، بل كان يرى أنها أرض بلاده، التي اغتصبها المصريون، لذا لم نجد جيشًا في عهد إخناتون يدافع عن ما حققه والده من فتوحات ومكاسب، بل إن هناك من البرديات والمراسلات الكثير والكثير الدال على أن ولاية الأمور في البلدان البعيدة عن العاصمة، كانت تستغيث بالفرعون "برعا" من حركات انفصالية، ومن هجمات لأعداء، إلا أن الملك لم يحرك ساكنا لحمايتها، فيما يُعد هدمًا لما بناه والده من إمبراطورية عظيمة، شملت شمال الأرض وجنوبها.

ومن الطبيعي أن يكون أكثر الفئات حزنًا، هم العلماء، أصحاب العلم، والعلماء هنا هم أنفسهم كهنة آمون، فالمعابد المصرية القديمة لم تكن معابد بالمعنى الذي يخطر على البال، لم تكن معابد للتعبد فقط، ولكن العلم عبادته، فالمعابد ما هي إلا مدارس، تدرس جميع العلوم، سواء الدينية أو الدنيوية، والعلماء لا يحاربون بالسيف، ولكن حربهم بالعلم، وأى علم، إنه علم الكيمياء الذي برعت فيه مصر، بل الذي أشتق منه اسم مصر نفسها، فقد كان "كمت" أحد أسماء مصرنا الحبيبة، وهو اسم مشتق من علم الكيمياء.

وعلم الكيمياء لم يكن بمعزل عن الطب المصري القديم، فالعلوم متكاملة، ونرى أن كهنة آمون، أو علماء آمون، لم يكونوا قادرين على مواجهة مثل هذا الفرعون "برعا" الطاعي، الذي حكم بالحديد والنار، ليصل تسلطه إلى منع الجيش من الدفاع عن أرضه، ومنع شعبا من عبادة إله، لم يكن الكهنة قادرين على المواجهة العسكرية، ولكنه مستقبل دولة، دولة تنهار وتتفصل أطرافها، دولة تنهار ويتجرأ عليها شعوباً أخرى، دولة تنهار ويعم فيها فساد أدى إلى انهيارها من الداخل أيضاً، لم تكن هناك طرق يتم إنشاؤها، ولا سدود يتم صيانتها، كيف ذلك، وقد اعتاد الجيش المصري أن يتولى مثل هذه الأمور في حالة عدم وجود تهديدات تستدعى وجوده خارج البلاد، وبالتالي فإن الجيش قد مُنِع، ليس فقط من الدفاع عن أطراف الوطن العظيم، ولكن أيضاً من الدفاع الداخلي ضد قوى الطبيعة، مُنِع من إنشاء الطرق وصيانة السدود، فيما أدى إلى المجاعة الشهيرة التي حدثت بعد ذلك بقليل، تلك المجاعة التي وردت في القرآن الكريم في عصر يوسف الصديق، وما أصاب مصر من سبع سنوات عجاف، بسبب عدم فيضان النيل، ونضيف وبسبب عدم وجود سدود لتخزن المياه، وبسبب عدم وجود سياسة اقتصادية خارجية للتبادل التجاري، فقد قضى إخاناتون على تجارة الجنوب والشمال بين مصر وبلاد بونت، وبلاد فينيقيا، وغيرها من البلاد.

أصبحت مصر التي أحبها أهلها أكثر من أي دولة في العالم، أصبحت مصر في حالة تدمع لها أعين علمائها، ودموع العلماء غالية. فكان التفكير العلمي الرائع للدفاع عن وطن عظيم ضد طاغية، أطاح بكل رموز الدولة.

فقد تم استخلاص الهرمونات الأنثوية، سواء من النباتات، أو الحيوانات، فلا يعنينا هذا في شيء، ولكن الذي يعنينا هو إنه تم استخلاص هذه الهرمونات لمحاربة الطاغية، وبدأ الطاغية يتحول شيئا فشيئا، إلى الشكل الأنثوي الذي نراه في تماثيله، دون غيره من الملوك، بل إننا نرى أن الملكة حتشبسوت وهى سيدة قد تمثلت بشكل الرجال أثناء حكمها لمصر، أما إخناتون فقد فقد رجولته، أو فقد شكله الرجولي، الذي يفتخر به المصري دائما، فقد تشكل الملك ذو القوة العضلية، وتحول جسده ظاهريا إلى جسد أنثى.

ولكن هل هذا التحول كان ظاهريا فقط؟ نرى أن هذا التحول امتد ليشمل جيناته وكروموزوماته، فقد اختفى كروموزوم الذكورة من خلايا إخناتون المنوية، لينجب بناتا فقط، فمن المعروف علميا، أن نوع الجنين يتحدد من جهة الأب، وليس من جهة الأم، ونظرا لأن إخناتون قد أنجب، ثلاثة من البنات هم:

- ميريت آتون، ابنته الكبرى، وإن كان من الأرجح أنها حصلت على هذا اللقب بسبب زواجها من سمنكارع.

- ميكيتاتون ابنه إخناتون الثانية وسبب هذا الافتراض هو وفاة ميكيتاتون بسبب الإنجاب في السنة الرابعة من حكم إخناتون.
- عنخ سن پا أتن الابنة الثالثة، والتي أصبحت زوجته لتوت عنخ آمون فيما بعد.

فقد يؤكد ذلك فكرتنا عن الاغتيالات العلمية، التي تمت من خلال زيادة الهرمونات الأنثوية في طعام إخناتون؛ ليتحول جسمه تدريجيا إلى جسم أنثى، ثم تموت كروموزوماته الذكورية، فتكون كل ذريته بنات، ثم يموت هو، يموت نتيجة للخلل الذي حدث في جسمه، ليموت إخناتون، بأسلوب خفى، وتختفى جثته، بأسلوب خفى، بغض النظر عما يشاع عن العثور عليها فيما بعد بوادي الملوك بطيبة، وحتى إن كانت تلك هي جثة إخناتون، فلماذا هي في طيبة، وليست في أخيتا أتون، ربما يكون ابنا من أبنائه أراد تكريمه، فنقلها إلى أرض الحياة الأخرى للملوك، عموما فإن هذا الأمر لا يعيق وجهة نظرنا بأي حال من الأحوال. فقد مات إخناتون الملك الطاغية، الذي خالف كل ما هو مصري.

مات إخناتون

مات أول من كفر

مات من تقلص في عهده ملك مصر

مات من تسبب في مجاعة حلت بمصر

مات من تسبب في أكثر من ذلك، من طغيان الفلسفة المادية في وقت من الأوقات على الفلسفة الروحية، التي أدت بأحد الفراعنة لأن يطغى، فالفراعنة ليسوا بطغاة، ولكن بمجرد طغيان أحدهم، أرسل إليه رسولا، كما جاء في القرآن الكريم، اذهب لفرعون إنه طغى، وهذا الطغيان، لا يكون إلا نتيجة لفكر خاطئ، أو لبعد عن فكر سوي، وقد سن إخناتون سنة، أثرت على مصرَ لسنواتٍ عدة، سنَّ لها سنة التفكير بلا علم مكتمل، ففي نظرنا، لم يكن إخناتون مكتمل العلم، سواء الحياتي، أو العسكري، وبالرغم من ذلك فقد سنَّ سنة "فلسفة الجهلاء"، التي قد تكون مصر تعاني منها حتى يومنا هذا.